

العقاد وأعظم نقاد شكسبير

د. نبيل راغب*

على الرغم من أنني لم أكن من المترددين المنتظمين على ندوة الأستاذ العقاد التي كانت تعقد كل يوم جمعة في بيته بمصر الجديدة، إلا أنني حرصت على تسجيل كل الندوات التي حضرتها في أوراقى، لأن الندوة الواحدة كانت بمثابة الاطلاع الواسع على كتابين أو ثلاثة. من هذه الندوات الندوة التي عقدت الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٥٧.

وكانت أول ندوة أخطب فيها الأستاذ العقاد بعد أن كنت أتهيب الحديث معه نتيجة لكلام المقربين منه عن ضيقه بكل من يختلف معه في الرأي. وقررت أن أخوض التجربة عندما أثرت في الندوة قضية النقد الأدبي الإنجليزي وموقفه من شكسبير. وبحكم أنني في ذلك الوقت كنت طالبا في قسم اللغة الإنجليزية فقد سارعت - بعد تردد - بقولي بأن النقاد والدارسين الإنجليز

(*) أستاذ الدراما والأدب الإنجليزي، بمعهد التدقيق الفني، أكاديمية الفنون.

قد اتفقوا فيما يشبه الإجماع على أن الشاعر الرومانسي الكبير كولردج هو أعظم نقاد شكسبير، وهو الذى قدمه للعالم كله على حقيقته. وإذ بالعقاد يلتفت ناحيتى وهو يقول بأسلوبه الزاخر بالكبرياء والأستاذية: أنت مخطئ يابنى. فانكملت فى مقعدى وندمت على قولى لكننى اعتذرت بأن هذا هو قول النقاد الإنجليز وليس قولى. فكرر العقاد قوله: ولهذا أنت مخطئ يابنى. خذها منى نصيحة وأنت فى بداية الطريق: لا تعتمد فى إصدار حكمك على حكم الآخرين دون فحص أو تمحيص وإلا فلن تضيف شيئاً وستظل تردد أقوال الآخرين كالبيغاء. ولذلك فأنتى أقول لك بعد فحص وتمحيص إن أعظم نقاد شكسبير هو الناقد والمفكر وليم هازلت. وقد وصلت إلى هذه القناعة منذ أواخر الثلاثينيات وذلك بعد أن قرأت شكسبير وكولردج وهازلت، كل على حدة بنفسى ولم أعتمد فى هذا على آراء نقادك الإنجليز يابنى. وهذا ما سيتضح فى الكتاب الذى أقوم بتأليفه الآن والذى أنوى أن أسميه "التعريف بشكسبير".

وكانت نصيحة العقاد أكبر مما يحتملها طالب فى سنى، إذ أننا كنا نكتفى بدراسة الكتب المقررة علينا فى الكلية بالإضافة إلى المراجع المرتبطة بهذه الكتب والتي كنا نستعيرها من مكتبة الجامعة. ولكن يبدو أن العقاد قد لاحظ حرجى فأراد أن يقدم لى الدرس العملى على ضرورة اطلاع الدارس بنفسه

على كل خفايا الموضوع الذى يقوم بدراسته، فاتجه بحديثه إلى كل الحاضرين وقال:

"صحيح أن كولردج كان رائداً في تأكيدده على أن الناقد المجيد يعبر عن آرائه الشخصية الصرف التى لا قيمة لها لأنها لا تضيف شيئاً إلى تنوير النص المطروح للنقد، بل يستخدم الأدوات النقدية في رفض النص أو قبوله على أسس موضوعية، مع التركيز على الوحدة العضوية وعلى الوعى الإنسانى بصفته قوة يمثل الشاعر بها الطبيعة بحيث تصوير الصور الخارجية أفكاراً ذاتية، وتصوير الأفكار الداخلية صوراً خارجية فتصبح الطبيعة في طبيعة الشعر والخيال والإبداع أكثر من أنه مامه بشعر شكسبير ومسرحه العبرى الخالد".

ثم انتقل العقاد إلى الحديث عن هازلت فقال:

"أما هازلت في "محاضراته عن الشعراء الإنجليز" فكان مثالا للناقد الواعى الملتزم بنظريته ورؤيته لشعر شكسبير ومسرحه، لكنه في الوقت نفسه لم يسمح لهذه النظرية والرؤية أن تقف حائلاً بين القارئ وشكسبير. ولذلك فإن محاضرات هازلت وكتاباتة - فى نظرى - تمثل المدخل الصحيح لكل من يريد أن يدرس شكسبير على حقيقته. وإذا كان لى أن أستخدم أفعال التفضيل كما يغرم به العرب فإنه في الإمكان القول بأن هازلت كان أعظم ناقد لشكسبير".

وبالرغم من أنني استوعبت نصيحة العقاد الغالية في ذلك الوقت فإن الأيام مضت ولم أقرأ هازلت وخاصة ما كتبه عن شكسبير. وذهبت بعد ذلك بعشر سنوات في بعثة دراسية إلى جامعة لانكستر في إنجلترا، وحدث أن زارنا في الجامعة الناقد الكبير أ. ا. ريتشاردز لإلقاء محاضرة في آخر تطورات النقد المعاصر، وكنت قد قابلته من قبل في القاهرة عندما زارها في شتاء عام ١٩٦٧. وبعد المحاضرة وحول مائدة الشاي سألته عن آخر مشروعاته النقدية، فقال أنه مشغول بقراءة هازلت مرة أخرى بعد قراءته الأولى له منذ حوالي أربعين عاما خلت.

وعندما سألته: لماذا هازلت بالذات؟ أجاب: أولاً لأنني أشرف على رسالتين جامعتين تدوران حوله، وثانياً لأنني لم أف هازلت حظه من الدراسة بنفس القدر الذي اهتمت به بكولر ج. وقد قاربت على اعتقاد بأن هازلت كان من أعظم النقاد الذين أنجبهم الأدب الإنجليزي وخاصة فيما يتصل بدراساته الشكسبيرية.

وفي الحال تذكرت رأي الأستاذ العقاد ولم أجد بدا من أن أخبر ريتشاردز به وأن العقاد توصل إليه منذ أواخر الثلاثينيات. فرفع ريتشاردز حاجبيه مندهشاً وقال: لقد كنت آمل أن أقابله عندما زرت القاهرة ولكنه للأسف كان قد رحل قبل ذلك بأربع سنوات. وإذا كنت متأكداً من قولك هذا

فإنه يتحتم عليك أو على غيرك من الدارسين المصريين تسجيله ودراسته لأنه رأى رائد بلا شك.

وكان هذا اللقاء حافزا لى على قراءة معظم كتابات هازلت النقدية ومحاضراته الأكاديمية وخاصة أن الحياة الثقافية في إنجلترا - وفى الريف الإنجليزي على وجه الخصوص - تغرى المارئ الكسول بالتهام كل ما يصل إلى يديه من كتب، فما بالك بالقارئ التهم المحاط بالهدوء بل والصمت من كل جانب. وبعد الانتهاء من قراءة هازلت أدركت كم كان العقاد رائدا في وعيه النقدى المبكر، وكم كان استاذا عظيما في نصيحته التى أنارت لى الطريق ومازلت تنيرها.

أسرد هذه الذكريات لصدور ثلاثة كتب في الأشهر الأخيرة في كل من إنجلترا والولايات المتحدة فيما يشبه الحركة النقدية التى تسعى إلى إحياء المنهج النقدى عند هازلت وإلقاء أضواء معاصرة عليه. ويبدو أن مؤلفى هذه الكتب من الدارسين الشبان الذين كتبوها على شكل دراسات أكاديمية أو رسائل جامعية. ذلك أننا لم نسمع عن أسمائهم من قبل فى مجال النقد الأدبى العام. ولكن الشهرة لاتهم طالما أن الكتب تتحدث عن نفسها. ويبدو أن خطأ واحدا يربط فيما بينها لأنها تكمل بعضها البعض، وذلك على الرغم من أنها صدرت عن دور نشر مختلفة. لكن صدورهما فى عام واحد فتح دفعة جديدة للدراسات التى تدور حول فكر هازلت ومنهجه النقدى.

الكتاب الأول بعنوان "شكسبير بين كولردج وهازلت" ومؤلفه بيتر دين الذى أقام كتابه على فكرة تكاد تتطابق مع رأى العقاد. ولولا أننى أفتقر إلى الدليل الذى يثبت إطلاع المؤلف على فكر العقاد لقلت أنه نقل عنه. وحتى فى حالة توارد الخواطر فإن هذا يثبت للحقيقة والتاريخ أن العقاد توصل فى أواخر الثلاثينيات إلى ما توصل إليه الإنجليز فى أوائل الثمانينيات فى شأن يتصل بصميم حياتهم الأدبية والنقدية. فقد رجع المؤلف كفة هازلت على كفة كولردج فيما يختص بنقد شكسبير كشاعر وكاتب مسرحى من نوع فريد.

والكتاب الثانى بعنوان "ملاحظات نحو إعادة تقويم آراء هازلت فى الشعر" لمؤلفه ج.ل. فوستر. والكتاب على صغر حجمه يمتاز بالكثافة والتركيز فى رابطة آراء هازلت النقدية ومقارنتها بإنجازات مدرسة النقد الحديث التى بدأت بإزرا باوند و ت.س. إليوت. ويوضح فوستر أن النقد الشكسبيرى عند هازلت لم يأخذ حظه من الدراسة والتوضيح، وكان هذا بمثابة الدافع الأساسى عنده لكتابة هذه "الملاحظات" ونشرها. وأظن وقد أكون مخطئا - أن فوستر هذا كان تحت إشراف أ.أ. ريتشاردز لأن أفكاره التى وردت فى كتابه تتطابق تماما مع الأفكار الذى ذكرها لى ريتشاردز عندما قابلته فى إنجلترا منذ أكثر من عشر سنوات.

أما الكتاب الثالث فقد صدر فى الولايات المتحدة عن مطبعة جامعة بتراسكا بعنوان "المدرسة الرومانسية والمسرح الشكسبيرى" لمؤلفه إدوارد

جوسيك، وفيه أوضح أن نقاد المدرسة الرومانسية في الشعر وعلى رأسهم كولردج لم يستطيعوا الخروج من دائرة ذاتهم عندما تعرضوا لنقد شكسبير، ولذلك فنحن نرى شكسبير من وجهة نظرهم المحددة بفلسفتهم في الإلهام والعاطفة والخيال والإبداع الشعري التلقائي. ثم يفرد المؤلف الفصل قبل الأخير لوليم هازلت الذي يقول عنه أنه كان من صفاء الذهن بحيث وضع يديه على العناصر الكامنة في خلود مسرح شكسبير وعصره.

وهكذا نجد أن الثلاثة لم يضيفوا جديدا إلى رأى العقاد المبكر، وأن كانوا قد توغلوا في التفصيلات والتفريعات. وهذه أعظم شهادة للعقاد الذى حدد بفكره الثاقب مكانة أعظم نقاد شكسبير قبل أبناء بلده أنفسهم بأربعين عاما.

